من منشورات جمعية رابطة العلماء
في العراق

الرسالة وانوارها

بقلم
الشيخ عبدالكريم محمد فتاح المدرس

يوزع مجاناً

مطبعة الحوادث ـ بغداد
١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هـدانا لهذا ومـا كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله والصـلاة والسلام على سيدنا محمد الـذي ارسله رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه اجمعين واتباعه باحسان الى يوم الدين :

وبعد فهذه رسالة لطيفة حول رسالة الرسل الـكرام عليهم الصلاة والسلام ومعجزاتهم وسـائر الخـوارق للعادات الواردة ارهاصا وتأسيسا للرسالة وتأييدا لهم في مهمتهم ونشر احكام الدين :

اتفق العلماء وائمة الهدى على ان اول واجب على الانسان الرشيد الذى يعرف نفسه ان يعرف ربه الذى خلقه ثم رسوله الذى ارسل اليه ثم مجتمعه ليؤتى كل ذي حق حقه ويعيش كانسان نافع في العالمين :

وبذلك يكون عالما بمسئوليته في حيـاته والشعور

بالمسئولية واداء واجبها من اهم المهمات في الدنيـــا والدين :

ومن هنا يجب على الانسان ان ينظر بدقة وتأمل في شخصه المخلوق من بني الانسان ليعلم ان الانسان اكرم مخلوق في عالم الوجود كما نبه الوحي السماوي عليـه ولقد كرمنا بني آدم •• لقد خلقنا الانسان فـي احسن تقويم :

واذا علم بذلك فليعلم انه يشارك المخلوقات الجامدة مـن المعدنيات وغيرها ولـكن يتميز عنها بالنمو والزيادة في الاقطار ويشارك الناميات كالاشجار والنبات ويتميز عنها بالحس والحركة الارادية ويشارك الحيوانات فيهما ويتميز عنها بالعقل المدرك المتطور الى ما شاء الله فانـــه يعلم من فجر تاريخه الى يومنا هـذا كـان ولا يزال يتطور من السيء الى الحسن ومن الحسن الى الأحسن في امور معاشه وحياته واذا علم انه عاقل متطور علم انه لم يخلق بهذه الصفة العالية العالمية عبثا مهملا بلا فائدة

وسدى بلا سؤال وجواب وبدون ميزان وحساب كلا ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون :

لان مساواة العادل للعاطل والعالم المدرك للجاهل المتحرك امر لا يقبله العقل السليم :

فمن هنا يعلم انه مخلوق له خالق خلقه على نظام بديع يستوعب الأصول الرفيعة النافعة له وللناس اجمعين :

وقد يرد على قلبه تردد في وجود الخالق الواجب الوجود الموصوف بالكرم والجود ولكنه اذا توجه الى سلامة الحال يفتح عليه ابواب الاستدلال بأمور :

منها انه يرى انه يجري عليه الليل والنهار وليس ذلك الا بحركة الكواكب ولاسيما الكوكب الذي هو عليه ويعلم ان هذا الكوكب المتحرك له محرك بالقسر او

الارادة اولا وذلك لا شبهة فيه • بقي في قلبه ان ذلك المحرك هل هو قوة لا شعورية تسمى جهلا بالطبيعة او انها قوة قدسية مبدؤها الذات الحي القيوم العليم القدير :

ولاشك انه يرفض العقل ان يكون مبدء هذا الكون البديع على النظام العجيب الرفيع عبارة عن اللاشعورية العمياء فيعترف بالله رب العالمين ••

ومنها انه اذا نظر الى العالم بارضه وسمائه علم انه عبارة عن عوامل مسخرة للعمل بالدوام وان لكل عامل عملا يؤديه لتطبيق حق النظام ••• ومن هنا يعلم ان القوى المسخرة للعمل ليست هي الخالق وانما الخالق هو الذات القادر المقتدر المسخر لكل الكائنات وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير :

ومنها النظر الى الآفاق والأنفس فاذا نظر العاقل نظر تدبر وتأمل في الافلاك وما فيها من الكواكب المشعة المتحركة على الوجوه المختلفة بالسرعة والبطؤ والتشريق

والتغريب ونظر الى الشمس المنورة لنصف الكرة بل ازيد وتفكر في حجمها الذي يزيد على حجم الارض بمقدار مليون مرة ونظر وتأمل في الاثير وما فيه من العجائب ونظر الى المجرة الحزام المدور المزين والى الشعرى التي يقال انها اكبر من الشمس بمقدار مليون ويتراءى صغيرة لبعدها :

ثم نظر الى نفسه وشخصه وهيكله واجزاء بدنه من الرأس والصدر والبطن واليدين والرجلين وتفكر في النخاع الشوكي وفي الدماغ وما ارتبط به من الخطوط الواصلة الى العينين والاذنين وغيرهما وتفكر في الصدر والقلب والكبد والكلية والطحال والرئة وتفكر في المعدة وتحليلها للمواد المأكولة وتصفيتها لها والى صحة البدن ومرضه رأى ما يتحير منه العقول والألباب ثم تفكر بدقة في جانب معنوياتها من درجات العقل والعلم والحلم والقدرة وسائر الصفات النفسية الايجابية او السلبية والى

ما يطرأ على القلب من الفرح والسرور والضيق والسعة والعزم على الامــور والصبر والصــدق وغيرها علم ان الخالق لهذه الأمور الغريبة والقوى العجيبة ليس الا الله الحي القيوم القادر المريد السميع البصير والى ذلك تشير الآية الكريمة سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق :

ومنها ان اجزاء هذا العالم العلوي والسفلي اما كلهــا من الممكنات التي يستوي وجودها وعدمها اى يجوز ان يوجد وان يعدم واما واجبه وجب وجودها وامتنع عدمها واما بعض منها واجب وبعضها ممكن وهذان الاحتمالان الاخيران باطلان لان تلك الاجزاء قابلة للتغير والتبــدل والفناء وما كان كذلك لا يكون واجب الوجود والقول بان بعضها واجب وبعضها ممكن غلط لان الاجزاء كلهــا تنحلل الى جزيئات متماثلة قابلة للفناء والبقاء فاختصاص بعضها بالوجوب وبعضها بالامكان ترجيح بلا مرجح :

فتعين الاحتمال الاول وهو ان كل اجزاء العالم ممكن الوجود وممكن العدم ووجوده وعدمه بارادة الله القادر المختار فيعلم ان الله هو الخالق لكل شيء :

ومن هنا يؤمن العاقل حق الايمان بان الخالق لهـذا العالم هو الذات الموجود القديم الباقي الغنى المطلق الذى ليس كمثله شيء وهـــو الحي القيوم العالم القادر المريد السميع البصير المتكلم بالحق وانه يغير ولا يتغير ويؤثر ولا يتأثر وانه مجرد عن العلائق المادية وليس مـن عالم الأمكان بل هو الواجب الوجود وبما ان نفس الانسـان المتفكر جزء من هذا العالم يعلم انه مخلوق لـه تعـالى ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله :

ولما اعترف بانه وسائر بني نوعه وغيرهم مخلوق لله تعالى علم انه ما خلقهم الله تعـــالى عبثـا بلا نظام ولا مسئولية بل ان هناك نظاما يتعلق بالكل من اجزاء العالم ونظاما يتعلق بالمكلفين ومـن هنا يعلم انه مـن مقتضى

حكمة الباري جل جلاله اختيار فرد او افراد من نوع المكلفين للرسالة فيبعثه ويرسله الى الناس لتطبيق النظام المبين :

واذا أتاه تردد من الواهمة او من قوى الشر انه لا حاجة الى ارسال الرسل لان العقل كاف في ابداع النظام وتطبيقه على ما هو صلاح العباد • رده العقل السليم والتفكر المستقيم بان العقل وحده لا يكتفي به لان العقل وان ادرك طريق النجاح وساعده الوجدان والعاطفة الانسانية لكنه ليس بكاف في تشريع اصول يعيش عليها الانسان ويتكفل السعادة ، وسر ذلك بالحقيقة ان الانسان نموذج بديع من الخليقة جامع لصفات وقابليات عديدة من الفضائل والرذائل فان فيه العقل والعلم والصبر والصدق والوفاء كما ان عنده الجهل والكسل والعجلة والكذب والخيانة والغضب والشهوة والجذب والرفع وفي عين الوقت هو مدني بالطبع لا يعيش بدون اجتماعه مع بني نوعه :

وباقتضاء ذاته يحتاج الى هواء صاف وسكنى وقوت وجاه وأهل وراحة فكل انسان مادام جادعا لهذه الحاجات يقع بينه وبين غيره المنافسة والمعارضة في المقاصد فيحتاج المجتمع لكسب الامان والراحة الى مبدء واصول متبعة يعيش عليها المجتمع الانسانى :

وهذا المبدء اذا كان مادياً صرفاً لا يكفي في كسب راحة الجميع لان القوة المادية والسيطرة انما تقوم بمعالجة امور علنية معلومة ولا يسيطر على القلوب في الخلوات :

فاذا لم يكن هناك وازع نفسي قدسى ورادع معنوي مسيطر عليه لا يمتنع بالذات عن ارتكاب الشهوات المحرمة وقتل الابرياء المعصومة والتعرض للامانات والودائع التي جعلت عنده ولا يمتنع عن الخيانة في العهود وحنثه في الأيمان وغير ذلك من الامور الكثيرة التي لا تحصى :

فاحتاج البشر الى اصول سماوية تدعوه الى الطمع في الدرجات والخوف من الدركات ومحبة الفضائل وكراهية الرذائل وغير ذلك من الايجابيات والسلبيات وتلك القوة تكون بمثابة التمسك برابطة نورية قوية اقوى من جذب القوة الكهربائية ودفعها وذلك هو الدين المبين الناتج عن الوحي ومن تفكر في قواعد ذلك الدين المبين وجد في نفسه الايمان بان الدين نور يؤيد العقل في ما يهتدي اليه ويفيده في ما خفي عليه ولا ينازعه الا في ارتكاب الرذائل فالدين والعقل اخوان شقيقان ورفيقان متوافقان وكذلك العلم الصحيح الناتج من الاكتشافات او الذي يكون سببا للاختراعات فان مبدء العقل والدين هو الله العليم العلام فلا يمكن ان يكون هناك معلومات مخالفة لنصوص الدين واذا توهم احد تعارضا بينها فانما هو تعارض ناشيء من عدم كون العلم موافقاً للواقع وانما هو ظنون لا تصل الى الحقيقة او ان في رواية الدين اضطرابا هناك اذ لا تعارض مطلقا بين القواطع مطلقا :

والحاصل ان الاحتياج الى الدين والى الرسول المبلغ الامين ضروري بديهي ليس محلا لنزاع العقلاء .

ولذلك نجد في القرآن الكريم ان الله سبحانه وتعالى كان منذ ان خلق البشر على الارض ارسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين كما قال تعالى وان من امة الا خلا فيها نذير وقال وكذلك ارسلنا رسلنا تترى وقال وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا :

وهنا نقطة هي ان اولئك الرسل الكرام لماذا كانوا محتاجين الى المعجزات واظهار خوارق العادات للبشر :

والجواب هو ان الانسان نوع له اصناف ولكل صنف افراد ولكل فرد نوع من القابلية والامتياز فمنهم من اذا ادرك الرسول وسمع كلامه ونظر الى اعماله واخلاقه وعفته وامانته علم انه مبعوث من الله ومختار لتبليغ احكامه وآمن به وصدقه واولئك هم الصديقون ومنهم من كان محتاجا الى بعض ادلة نافعة وارشاد حتى جاء الى الشعور

الصافي وآمن به ومنهم من كان شديد الشكيمة ويحتاج في التصديق الى اظهار الرسول للخوارق اى امور تظهر مخالفة للقواعد العامة والامور المعتادة يدل ظهورها على انه رسول من الله تعالى وايده بهذا الامر الخارق :

ولما جاء البحث عن المعجزة والخوارق ينبغي ان نعلم اولا ان كل ما يتصوره الانسان فهو محصور في اقسام ثلاثة :

القسم الاول هو الذي يجب وجوده ويستحيل عدمه كوجود الباري تعالى والقسم الثاني ما يجب عدمه ولا يمكن وجوده وهو الممتنع العقلى الذى يسمح عرفا بالممتنع بالذات كجمع النقيضين بان يكون شيء واحد موجودا ومعدوما في آن واحد وكجمع الضدين كأن يكون لون واحد سوادا وبياضا :

والقسم الثالث ما لا يجب وجوده ولا عدمه اى يستوى وجوده وعدمه بالنظر الى ذاته وهذا القسم هو

المشهور بالممكن الذاتى وهذا القسم له قسمان الاول ما يكون وجوده موافقا للعادة المقررة كولادة ولد من أم تزوجت برجل حسب العادة •

والقسم الثانى ما يكون وجوده مخالفا للعادة كولادة ولد من امرأة لم تتزوج وهي عفيفة وكنطق حيوان من الأنعام او غيرها وحدوث مائدة طعام في صحراء بلا معالجة احد وما شاكلها : فان كل ذلك من الممتنعات حسب العادة مع كونها من الممكنات الذاتية اذ لا استحالة في وجودها فعلا كجمع الضدين وانما هو خلاف العادة :

وذلك الممتنع العادى وان كان خارجا من الاصول الاعتيادية لكنه ليس خارجا من النواميس الكونية :

لانها ليست ممتنعة كجمع النقيضين او الضدين والنواميس كثيرة منها وجود ابي البشر من التراب وكذلك وجود اصول سائر الفصائل الحيوانية من المواد العنصرية فان كل نوع من انواع الحيوان يعود الى اصل

تفرع منه وذلك ناتج من غير نوعه :

وحكم بذلك العقل السليم بمعونة البرهان القاطع لان التسلسل في الافراد يمنع التشخص والوجود لا يكون بدون التشخص :

ولله در من قال :

لله في خلقه الصافي نواميس
للعلم في شرحها الكافي قواميس

ولو قصدت لها ضبطا بتحرير
لضاق عن ضبطها الوافي قرطيس

فظهر ان المعجزات وخوارق العادات ليست امورا واجبة ذاتا وليست ممتنعة عقلا واما هي ممكنات بالذات لكنها ممتنعات عادة ولذلك يقال لها الخوارق او المعجزات ولو لم تكن ممتنعة عادة لم تكن لحدوثها قيمة ولم تكن من اسباب التصديق بالرسول ونبين ان المعجزة امر

خارق للعادة وممتنع عادة يظهر على يد الرسول بدون علاقة كسب واختيار :

واما اخضاعها للعلم فان اريد بالعلم علم الله تعالى فلاشك انها خاضعة لعلمه ومادته حسب نواميسه الكونية المعلومة لـه وان اريد اخضاعها لعلم البشر فان ذلك حكم لا يقبله العقل السليم والعقل المستقيم اذ لو كان كل موجود خاضعا لعلمه لكان استمرار الحياة خاضعا لعلمه وكان تمنع النار عن الاحراق والماء عن السيلان والسحاب عن الابراق والامراض الفتاكة عن الانسان الى غير ذلك من الامور الخارجة عن علمه وقدرته وارادته •

ومما يجب ان يعلم ان المعجزة ليست من الامور الحاصلة بالكسب والاختيار اى ليست امورا مبنية على اصول اعتيادية كاستخراج المجهولات بقانون التناسب او بالجبر والمقابلة او بالجفر وعلم الحروف وما شاكلها

والا لاكتسبها الناس وكانت تنتشر في العالم ..

وليست ايضا من الامور الناتجة من الرياضة البدنية كالمشي على الاسلاك الممتدة فوق الانهار وكمنع الانسان نفسه عن التنفس زماناً او عن الاكل والشرب زماناً يزيد على مقدار العادة :

وليست سحرا لان السحر مبني على تعلم بعض علوم خاصة وقد كثرت السحرة في الازمنة السابقة لرواج مرامهم وليست ايضا من الشعوذة وخفة اليد التي هي عبارة عن تموهات لا قيمة لها لان المعجزات حقائق وتلك الامور لا قيمة ولا حقيقة لها :

وانما هى وسائر الخوارق الناشئة منه تعالى الواردة على انسان او غيره او الناشئة صورة على يد احد الانبياء او الصالحين امور واقعية حقيقية ثابتة في الاعيان :

واليك منها نبذة مما نقرأه من القرآن الكريم ففي

سورة البقرة قوله تعالى الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم وهم الوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم احياهم ـ الآية ـ وقوله تعالى في شأن عزير عليه السلام او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال انى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مأة عام ثم بعثه • قال كم لبثت قال لبثت يوما او بعض يوم قال بل لبثت مأة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسه ••• وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال اعلم ان لله على كل شيء قدير :

وفيها ايضا قوله تعالى :ـ اذ قال ابراهيم رب ارني كيف تحيي الموتى قال اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ اربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل جزء منهن ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم ان الله عزيز حكيم •

فهذه الامور كلها خوارق كونية وهي الممكنات الذاتية والممتنعات العادية وقد اخبر الله تعالى بها ومن اصدق من الله قيلا •

ومن الخوارق الممتنعة عادة ما وقع على ملأ من الناس وقد حكاها الله تعالى • وقال تعـــالى : اذ قال الله تعالى يا عيسى بن مـــريم اذكر نعمتي عليك اذ ايـدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلا واذ علمتك الـكتاب والحكمة والتوراة والانجيل واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني وتبرىء الأكمة والابرص باذني واذ تخرج الموتى باذني الآية وكـذلك انزال المائدة من السماء ••

ومنها ما ذكره القرآن الكريم في شأن سيدنا موسى على نبينا وعليه السلام من آثار عصاه ويده البيضاء وما حدث من الخوارق في الملأ العظيم وما حصل لـه مـن يبس البحر عند مروره مع بني اسرائيل فيـه • قـــال تعالى

واوحينا الى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى : ومن ضربه بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة علنا قد علم كل اناس مشربهم •

وكنقل صاحب سليمان عليه السلام عرش الملكة من سبأ الى ايليا في طرفة عين وتسخير الريح له وحركتها به وبمن معه مسيرة شهر غداة ومسيرة شهر رواحا •

وكلبث اصحاب الكهف ومنامهم هناك ثلثمأة وتسع سنين بدون اذى وبلاء على ابدانهم •

وكاسراء الباري تعالى بعبده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم عروجه منه الى ما فوق السماوات ومنه الى ماشاء الله من الدرجات •

واذا قطعنا النظر عن تلك النصوص المقدسة ونظرنا

بانفسنا وتفكرنا في العالم العلوي والسفلي بما في الاول من الكواكب المشعة وبما في العالم الثاني من المعادن والنبات والبحار والجواهر ونظرنا في حجم الشمس الذي يزيد على حجم الارض بمقدار مليون مرة ونظرنا الى الشعرى التي يقال انها يزيد حجمها على حجم الشمس مليونا من المرات ونظرنا الى موازين حركاتها على الميزان المقرر ، كما قال تعالى والسماء رفعها ووضع الميزان ونظرنا الى مقدار حجمها وحركاتها والى الجاذبيات الموجودة بينها ودورانها حول نفسها وحول الشمس من الازمنة والدهور علمنا ان الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء وان صعوبة بعض الامور عندنا انما هي لكونها مخالفة للعادة الجارية والا فهي من الممكنات الذاتية والاشياء الضعيفة تحت سيطرة الحي القيوم •

ومن هنا نعلم ان كل ممكن من الممكنات الذاتية فهي مما تتعلق به القدرة وان كانت من الممتنعات العادية •

وان كل ما يجري على يد الرسل الكرام من المعجزات فهي ممتنعات عادية ولكنها مسخرة للباري سبحانه وتعالى وهو القاهر فوق عباده وهو اللطيف الخبير •

وقد تقرر في عقايد السلف الصالح ان كل ما وقع معجزة للرسل الكرام يجوز وقوعه على ايدي الأولياء من عباده المتقين •

وان تقواهم بالاجمال تحتوي على امور ثلثة التقوى والاحتراز عن المكفرات حتى يكونوا مؤمنين وعن المفسقات حتى يكونوا عادلين وعن الانهماك في دناءة الدنيا حتى يكونوا من المتمكنين وذلك بعض المعرفة بالله تعالى ذاتا وصفة بقدر المستطاع واتباع السنة السنية النبوية والاستقامة عليها الى يوم لقاء رب العالمين •

وقد عقد علامة الاصول الشاطبي فصلا حافلا في كتابه الموافقات حول حدوث الخوارق لاولياء امته صلى الله عليه وسلم وكذا لاولياء امة غيره من الرسل عليهم

الصلاة والسلام على وفاق ما ظهر على ايدي الرسل كل على منهج رسوله لتأكيد الدلالة على صدق الرسل عليهم الصلاة والسلام في دعوى الرسالة •

وسر ذلك ان الله سبحانه وتعالى خلق الانس والجن ليعرفوا ربهم فيعبدوه ويطيعوه في كل حال بامتثال اوامره واجتناب مناهيه وقد قال تعالى سبحانه : وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون •

فاذا استمر العبد في طاعته بترك الحرام واداء الواجب اداء لحق العبودية وزاد على ذلك بالتطوع والاعمال الحسنة التي تفرض عليه ولكنه عمل بها تقربا الى الله احبهم الله واذا احبهم اكرمهم واعزهم ونصرهم وايدهم باظهار الخوارق للعادات على ايديهم تكريما لهم وتشريفا •

فهذه الكرامات تشبه اكراميات من المضيف للضيف العزيز الحبيب وليست تلك الكرامات باختيارهم ولا

بالتعلم ولا بمباشرة الاسباب الاعتيادية • وقد قال تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين احسن الله تعالى الينا والى سائر المسلمين وهدانا سبيل الرشاد ووهب لنا الاستقامة الى لقائه بكرمه ورحمته انه ارحم الراحمين • سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين •

ختمت الرسالة يوم الاثنين التاسع عشر من ربيع الثاني سنة ١٤٠٩هـ المصادف لليوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني سنة ١٩٨٨م • وانا الكاتب الفقير الى عفو ربي القدير عبدالكريم محمد المدرس بجامع حضرة الشيخ عبدالقادر الكيلاني نور الله روحه وزاد علينا فتوحه آمين •

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق (١٤٠) لسنة ١٩٨٩